كتابة السيرة الجماعية للمدينة الوطن

كيف يمكننى أن أصدق – وأنا أشهد طيور الحمام الأبيض تحلق فوق مسجد الحسن الثانى بالدار البيضاء، وترش رشات من عبير العنبر فى الفضاء الملون من حوله – أن ملائكة بيضًا، لا تحلق هنا وهناك، ولا تلوح بأجنحتها للمصلين الذين شاركتهم صلاة الجمعة، قبل أن تعود ثانية إلى السماوات العلا ؟.

مسجد الحسن الثانى بالدار البيضاء، ذلك الصرح الرابض فى قوة وجلال وجمال على البحر المحيط، بمنارته التى تشق عنان السماء الزرقاء، تتسع قاعة الصلاة به لـ ٢٥ ألفاً من جموع المصلين، ويتسع فناؤه لجموع من البشر تقدر بنحو ٨٠ ألف إنسان، إنه المسجد الجامع للفنون الإسلامية عبر العصور، والمجسد للعمارة الإسلامية فى قمة إنجازاتها.

مسجد الحسن الثانى، أثر سامق وشاهق، أنجزته جموع فقراء المغرب من الصناع والحرفيين التقليديين والفنانين والعمال، الذين استقدموا من الريف والجبل والصحراء، لكى يقدموا من عطاءات الفنون التقليدية المغربية ومن الهندسة المعمارية العربية الإسلامية ما يذكّر القاصى والدانى بفنون الأدارسة والأمويين والفاطميين والمرابطين

والموحّدين والمرينيين والسعديين والعلويين فى فاس ومراكش ومكناس والرباط وسلا.

فى قباب المسجد وأسقفه ومشربياته وأبوابه، أشكال نباتات وزهور، رسمتها أنامل مغاربة قادمين من الريف والجبل والصحراء على المنقوش والمزخرف من خشب الأرز المجلوب من جبال أطلس، وتشكيلات هندسية بديعة تعتمد المثلث والمربع والدائرة والسداسى والثمانى، وتتشكل انطلاقاً من جزء مساحة صغيرة وتتكرر وتتوزع فى محاور متنوعة.

أرضية المسجد وأعمدته وجدرانه وأحواضه، يكسوها الزليج والخزف المزخرف، كما تحيط زخارف الجبس بجدران المسجد على هيئة نقوش عازلة تفصل تلبيسات الفسيفساء فى كل القباب. ويغطى الرخام النفيس ذو اللون الوردى الجدران الداخلية للمسجد، بينما الرخام الشفاف القمحى الفاتح يغطى جدرانه الخارجية. وتزدان جدران المسجد وأسقفه بكتابات شعرية ونثرية وآيات من القرآن الكريم محفورة على الجبس والخشب والرخام تتبع فنون الخط العربى كالقيروانى والأندلسى والمغربى الفاسى والقسطنطينى والكوفى.

هنا فى مسجد الحسن الثانى، الرابض فى قوة وجلال وجمال على البحر المحيط، أكاد ألمس روحانية الجماعة حين تتوحد وجهتها وكلمتها، وأكاد ألحظ - مثل الدكتور ثروت عكاشة - فى تداخل فنون الزخرفة بفنون الخط العربى على الجدران والأسقف من حولى، وفى

امتزاج الزخارف الهندسية والنباتية، فكرة محددة عن العالم والحياة، عن الله والإنسان؛ تستند إلى أن الله الذى هو كنَّه هذا الوجود، منه بدأ وإليه ينتهى، هو الأول والآخر، والظاهر والباطن.

من هذه النظرة - يقول الدكتور ثروت عكاشة - اختلفت فنون الإسلام اختلافاً بيّناً عن فنون الغرب، فبينما يرفع الفنانون الإغريق والرومان الإنسان إلى منزلة يمجّدون فيها عُريه فى تماثيلهم، نجد الفنان المسلم ينظر إلى أعماق الإنسان أكثر مما ينظر إلى مظهره الخارجى، على رغم إيمانه بأن الله سَوّاه فأحسن صورته، وأن الفنان المسلم ليستهين بالعالم المادى ويراه عَرَضاً زائلاً ومتعة فانية إن لامسها لامسها فى رفق، مؤمناً دائما بأن الخلود الحقيقى إنما هو خلود الروح.

أمواج البحر المحيط تضرب بقوة كتل الحجر الصلد والأسمنت المسلح المتراصة أسفل السور الحجرى الممتد بامتداد شارع الكورنيش. طيور جارحة سوداء تحلق فى سماء زرقاء أرجوانية جريحة. وفتى وفتاة يجلسان فوق سور الكورنيش يعطيان ظهريهما للمدينة الكبيرة ووجهيهما للبحر المحيط. أقترب منهما، فتتسرب إلىَ كلمات غاضبة بالمغربية المحلية تخالطها عبارات بالفرنسية، فهل يعدان العدة لهجرة سرية ذات ثمن فادح هرباً من مدينة لا توفر العمل لأبنائها.

هواء البحر المحيط يدفع بالتراب وقصاصات صحف وعلب عصير فارغة ملقاة هنا وهناك فى حركة دائرية. أعطى ظهرى للبحر المحيط

مولّياً وجهي إلى المدينة الكبيرة. في منطقة غير ممهدة تتوسط وتحازي شارع الكورنيش ذا الاتجاهين وتنتظر من يستزرعها أشجاراً وزهوراً، رأيت عجوزاً حافي القدمين مرتدياً خرقاً بالية مستلقياً في غير مبالاة، ونظراته زائغة لا تستقر في اتجاه.

عبرت شارع الكورنيش والتفت ورائي إلى العجوز فرأيته من جديد وسط السيارات المسرعة التي تقطع شارع الكورنيش في كلا الاتجاهين، ومن خلفه المسجد الكبير بمنارته التي تشق عنان السماء، والبحر المحيط، والفضاء الجريح الممتد تحلق فيه طيور جارحة سوداء، والفتى والفتاة اللذان ربما لا يزالان يعدان العدة لهجرة سرية قد تكلفهما حياتهما.

لم يكن سكان شارع محمد الخامس بالدار البيضاء، قرب السوق المركزي، في حاجة إلى فيلم «على زاوا» للمخرج المغربي «نبيل عيوش» للتعرف إلى المخلوقات الصغيرة ذات الملامح القاسية، التي تعيش بجوارهم داخل فندق «لينكولن» المهجور. أقرأ للكاتب «عدنان ياسين»: أطفال بأمزجة صعبة وأرواح تشتعل بالعنف والعدوانية. أطفال لا يشبهون كثيراً أبطال فيلم «نبيل عيوش».

من مقهى في شارع «مولاي يوسف»، إلى أخرى في شارع «بوردو» وإلى ثالثة في شارع «باريس» أجد نفسي وقد استحوذت عليها رغبة عارمة في محاولة فهم ما تلتقطه عيناي من صور ومشاهد، وما يتسرب

إلى أذنـــى من عبـــارات مبتورة وجمل غير مكتملة فـــى أغلب الأحيان، وأجدنى أسأل مثل «نجيب محفوظ»: هل الإنسان يستحق ما يعانيه؟.

مقهى «ريكس كافيه» الذى شُـيد باســتديوهات هوليوود، وصورت فيه معظم مشـــاهد فيلم «كازابلانكا» الـــذى أنتج عام ١٩٤٢، وحقق من ورائه «همفرى بوجارت» و «إنجريد برجمان» شهرة كبيرة، صار واقعاً فـــى المدينة العتيقة بالـــدار البيضاء بالقرب من الميـنـــاء البحرى، على يد الدبلوماســـية الأمريكية الســـابقة «كاثى كريجر». يحرص «ريكس كافيه» على أن يعرض فى أمســـيات الآحاد فيلم «كازابلانكا» على شاشة تليفزيون كبيرة بالطابق الثانى للمبنى المؤلف من ثلاثة طوابق، وزبائن ريكس كافيه الذى شـــيد على الطـــراز المغربى التقليـــدى هم خليط من رجال الأعمال المغاربة والســـائحين والأجانب المقيمين بالدار البيضاء، والأثرياء.

فى مقدمة رواية «الجنازة» يقول «خوان جويتسلو»: البطل الحقيقى للروايـــة ليـــس هـــو الروائـــى ولا الزعيم المغتـــال الـــذى ينتهى النص بدفنه، إنه «الدار البيضاء»، الحاضرة الكبرى، الرائعة البائسة.

فى رواية «طريق السحاب» للروائى المغربى «أحمد المدينى»، يخوض فـــى المعلـــوم والمجهـــول ولملاحقة الأوهـــام والأوزار ولتأزيـــم المواقف والأحداث أمام سرعة تدخل ويقظة السلطة، ولإسكات القضايا الكبرى، ولصياغة سؤال الأزمة وأزمة الســـؤال: سؤال النظام والإقطاع والتعبئة الجماعية والإضـــراب. الجنون يفـــرز مفهوماً آخر للحيـــاة، كما أفرز

وشخوصاً وأسماء أخرى من زماننا.

يقـول «عبد الرحيم العلام» فى نقـده للرواية إن «براقش» هى حتماً تلـك المدينـة الفاضلـة والموعودة، التـى تحدثت عنهـا رواية «طريق السـحاب»، هى مدينة «الدار البيضاء» بلا شـك فى صورتيها الواقعية والمحتملة، وفى تجسـيدها لبطولة مدينـة جماعية، «فالدار البيضاء» تحضـر فى الرواية كطبوغرافيا وكمعطى تاريخى وسياسـى واجتماعى وذهنى وسـلطوى، هى كذلك مجال لصوغ أسـئلة المجتمع المغربى فى إحدى أهم مراحله بحيث تحكى سيرة «الدار البيضاء» وهى تتقاطع مع سير مدن أضحت خالدة ورمزية فى الذاكرة الحضارية والتاريخية.

قال الراوى «أحمد المدينى»: فى كل موقع بشرى يُطلق عليه الرصاص فى نهاية الرواية يتبعه تناسـل لمواقع بشـرية أخرى تكونت بسرعة عجيبـة. وفـى نهاية الروايـة، وليس فـى نهاية الحكايـة - يقول عبد الرحيم العلام - نصادف أن أحياء وشـوارع وأزقة «الدار البيضاء» تطفو كلها فى لحظة واحدة على سـطح الحكاية والتاريخ، مساهمة من الرواية فى كتابة السـيرة الجماعية لهذه المدينة التى تشـبه سـيرتها سـيرة مدن أخرى من هذا الوطن. وما قيام الروائى بالاستشهاد بمقطع سـردى مكثف يحكى عن نفس الأجواء، من رواية «أغادير» بالفرنسية «لمحمد خير الدين»، سـوى إحالة نوع مـن البطولة الجماعية للمدينة المغربية فـى صنع وصياغة تاريـخ المغرب الحديـث، وترميم الذاكرة الجماعية التى أصابها البتر والبياض والخراب والزلزال.

مليكة الفاسى» وقّعت على وثيقة الاستقلال

وحدى

فى الـدار البيضاء، أخاطب الأبيض النقى كأنه قلب عاشـق محـب لم يتغير ولم يتقلب. أيهـا الأبيض الناصع والزاهى، هل تعدنى بألا تخلع رداء البراءة مهما تعددت الجراح ومهما واجهت من خيانات الألوان؟ أيها الأبيض الجميل، هل تدلنى على وردة الصقيع التى لا تتغير رائحتها بتغير الفصول والأسماء؟

الأبيض، فى واجهـات البيوت، وفى الغمـام الكثيف، وفى طيور الحمام فى سـاحة محمد الخامس والأحمر الدامـى فى شمس المغيب. ومساء حزين يسدل سـتائره القاتمة على العالمين. أنظر فى مرآة نفسى فأرى فيض شـعور يحرك مكامن الحنين إلى أن أطرح أسـئلة لا يجاب عنهـا بالصمـت، وإلى أن أتكلم فأجـد من يسـمعنى ولا يحتفظ فقط إلا بالكلمات التى ينتظر سماعها.

تغيـم المرئيات فى عينى، وتتجدد الأشـكال من محتواها، ويتصدر الفراغ المشـهد. تتسـلل الألوان لتعبر عن مشـاعر اللحظة العاطفية فى توزيع أوركسـترالى يحاكى إيقاعه إيقاع موسـيقى الشعر، يجذب إليه الحمام والعصافير والفراشات وأناشيد الملائكة.

تتفتح مغالق روحى، ويخف جسدى ويشف، وأجدنى أسبح بعقلى فى المطلق والمجرد. أسـأل: هل يحول الجسـد بين الروح وبين رؤية

ضوء الحقيقة ومشاهدة الحكمة فى صفائها؟.

تقــول الحكاية القديمة: إن شــابًا خجولاً أحب فتاة جميلة مرحة، هــو كان يعلى من عشــق الروح ولا يلقى بالاً إلى عشــق الجســد، وهى كانت تعلى من عشق الروح والجسد معاً. نشب الخلاف بينهما، الشاب الخجــول كثيراً مــا كان يدلى لمحبوبته بتصريحــات مفادها أنه يحب روحها وكفى، وكانت الفتاة المرحة الجميلة تجاهر لحبيبها كثيراً بأن «الــروح لا تبصر إلا بعين الحواس»، وبأن «الروح تعتمد فى أداء عملها على حياة الجســم». فى يوم حزين ملبد بالغيوم حســم الشاب الخجول أمــره وقطــع علاقته بفتاته الجميلــة المرحة ذات العينين الســوداوين الصافيتين.

فى القطــار العائد بى من الدار البيضاء إلى مراكش، اتخذ مجلســى فى ديوان ســبقنى إليه رجل يجلس فى الأريكة المقابلة ويقرأ فى رواية بالفرنســية، وبجانبه إلى جوار النافذة وفى مواجهتى امرأة فى مقتبل العمــر تقرأ فى مجلة «زهــرة الخليج» التى تصدر فــى دولة الإمارات العربيــة المتحــدة. وعلى الأريكة التى أجلــس على طرفها المجاور للنافــذة وإلى يمينــى، تجلــس امرأة شــابة ترتدى الــزى المغربى وتتبادل الحديث باللهجة المغربية مع فتاة ترتدى الجينز.

مســافرون خمســة جمعتنا الصدفة وحدها فى ديــوان بعربة قطار يقطع أرض المغرب الأقصى. ملامح الرجل الجالس على الأريكة المقابلة والممســك بالرواية الفرنســية فى يده تشــى بأنه غير مستعد لفتح باب

حوار مع أحد. المرأة الشـابة وفتاة الجينز إلى يميني غارقتان في نقاش أدركـت بعد جهد أنه يدور حـول عنف الأزواج. من وقت لآخر تلتقي عينـاي بعيني المرأة في مقتبل العمر الجالسـة أمامي، ثم تعود هي إلى مجلتها وأعود أنا إلى المنظر الطبيعي عبر نافذة القطار. تذكرني العينان السوداوان الغامضتان بعيني «ثريا المجدوب» زميلة معهد البوليتكنيك بوسـط لنـدن، عندما كنت أنا أدرس فيه دبلـوم الترجمة وكانت هي تدرس اللغة الروسية.

علامات ألم ترتسـم على وجه المرأة الشـابة التي تجلس أمامي، على أثرها تضع المجلة على الطاولة التي تتوسـط المسـافة بيننا والمثبتة أسفل زجاج النافذة، لتنحني إلى حيث السوسـتة التـي تغلق الجزء الممتد من الحذاء الجلدي الأسـود الذي يلف الساق إلى أعلى حتى أسفل الركبة، في محاولات متكـررة لفتحها، لكي تحرر قدمها وسـاقها من ضغط الحذاء الذي يسـبب لها ألماً، لكن بدون جدوى. غالبت خجلي وأنا أعرض عليها مساعدتي في فتح سوستة الحذاء. ابتسمت في خجل وهزت رأسها موافقة. لكن مقبض السوسـتة الصغير الذي كسر نتيجة محاولاتها السابقة صعب من مهمتي. المرأة الشابة والفتاة الجالستان إلى جواري وكذلك الرجل الذي يقرأ في رواية بالفرنسـية عرضوا مسـاعداتهم لكنهم فشـلوا واحداً بعد الآخر فيما فشلت فيه أنا. جاءت النجدة أخيراً عند قدوم مسافر جديد إلى ديواننـا، فقد تكفلت حقيبته بما فيها من أدوات ومواد في فتح سوسـتة الحذاء، وفي إشاعة جو من الارتياح والبهجة بيننا.

«سهام حامى» المرأة الشابة التى تجلس فى مواجهتى، متزوجة من رجل أعمال يمنى يعمل فى دول الخليج ومن وقت لآخر يأتى إليها فى المغرب لكى يصطحبها لقضاء أجازة طويلة فى مصر التى تحبها كثيراً. أخبرتنا «سهام» أنها تقضى أوقات فراغها فى القراءة وفى زيارة صديقاتها، وأنها متوجهة إلى مراكش لقضاء أيام مع صديقة لها هناك.

«إلهام»، الفتاة التى ترتدى الجينز، عادت إلى الدار البيضاء بعد أن أمضت سنوات فى كندا برفقة صديق لبنانى، وعندما حان وقت رحيلها إلى الوطن، اكتشفت أن ما جمع بينها وبين صديقها اللبنانى لم يكن حباً وإنما كان أقرب إلى الألفة التى تجمع بين غريبين فى مدينة غريبة كبيرة تفتقد إلى دفء العلاقات.

«مريم»، صاحبة النصيب الأكبر من الجمل والعبارات الغاضبة التى تصب جميعها فى غير صالح الرجال، جمعت ملابسها فى حقيبة وتركت منزل الزوجية فى الدار البيضاء غاضبة لتسافر إلى والدتها فى مراكش، وكل ما يشغل تفكيرها هو طلب الطلاق من زوجها الذى يضربها بعنف بعد كل شجار ينشب بينهما.

أفاد تقرير صدر عن مركز تابع للجمعية المغربية للدفاع عن حقوق النساء، بأن العنف المعنوى والمادى الممارس ضد النساء تضاعف، وذلك بعد أشهر قليلة فقط من التعديلات الجريئة التى أجريت على قانون الأسرة.

فى رأى الكاتب «ياسين عدنان» أن القوانين وحدها لا تكفى، ففعاليتها تبقى رهينة عقلية المجتمع والظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية المحيطة به. وأن مشكلة الجمعيات النسائية المغربية هى أنها تتصور دائماً أن المشكلة تكمن فى الذكور الذين يبدون نوعاً من الممانعة تجاه مدونة الأسرة الجديدة. وكذلك المحافظين الذين مازالوا يتلكئون فى تطبيق قوانينها، إلا أن الجمعيات النسائية المغربية تنسى أن جزءًا كبيراً من جهدها التوعوى يجب أن يتوجه إلى النساء فى الأساس.

يشير «ياسين عدنان» فى تقريره الصحفى إلى «خديجة» التى لا تعرف لماذا تطبل النساء المغربيات للمدونة - فى رأيها - لأنها هى شخصياً لم تر فيها ما يبعث على البهجة. كانت «خديجة» على وشك التزوج من شاب يعمل فى المصنع، لكن بعد صدور المدونة تراجع العريس عن فكرة الزواج، وعندما سألته «خديجة» عن السبب قال إن سوق النساء صار صعباً بعد صدور القانون الجديد. قالت «خديجة»: ماذا أعطتنى المدونة سوى أنها ضربت حياتى واغتالت أحلامى، مثلما خربت حياة واغتالت أحلام الكثيرات اللواتى كن موعودات بالزواج؟.

قلت للمغربيات الثلاث اللواتى يجلسن إلى جوارى وأمامى فى ديوان بعربة قطار يقطع الأرض المغربية فى اتجاه الجنوب إلى مراكش: لم يمنع عدم وجود مدونة جديدة للأسرة المغربية فى ظهور أسماء نسائية مؤثرة فى تاريخ المغرب، مثل «كنزة» أم إدريس الثانى، التى أدارت دفة الحكم فى المغرب لمدة ثلاث عشرة سنة، و «زينب النفزاوية» التى

تزوجت ثلاثة ملوك آخرهم «يوسف بن تاشفين» الذى كان لا يقطع أمراً إلا بعد استشارتها، و «للاخناثة» زوجة ومستشارة السلطان المولى إسماعيل، و «مليكة الفاسى» التى وقعت إلى جانب نخبة من سياسى المغرب ومفكريه على وثيقة الاستقلال.

مازحت «مريم» الغاضبة من زوجها قائلاً: أكاد أجزم أنك تضنين على زوجك بالكلمة الطيبة، وأنك بذلك قد ساهمت فى أن يغلق قلبه دونك. فور وصولك إلى منزل والدتك فى مراكش حادثى زوجك هاتفياً وأسمعيه بعضاً من كلام الحب الذى كنت تسمعينه إياه فى الأيام الأولى من زواجكما.

ضحكت «مريم» ونظرت إلى سهام وإلهام وقالت: الرجال المصريون أكثر قدرة على الحنان والحب، أعرف ذلك من أفلام السينما المصرية. قلت: هل تعلمون أننى أحببت فتاة مغربية من الدار البيضاء فى لندن؟. وضحكنا جميعاً حتى فاضت عيونهن بالدموع عندما علمن أن السبب الذى من أجله قطعت علاقتى بـ «ثريا المغربية» فى لندن هو أن ترحيبها بزملاء الدراسة بالمعهد لم يكن يقف عند حد السلام باليد وإنما كان يتجاوز ذلك إلى التقبيل والعناق.

قالت إلهام: هل تعرف أن مغربية مهاجرة من المغرب تدعى «فضيلة لعنان» لم تتجاوز الأربعين عاماً قد تقلدت منصب وزيرة الثقافة فى بلجيكا؟ قلت: أعرف، وهذا أسعدنى كثيراً.

المرأة الوردة.. جاءتنى فى الحلم ذات مساء

هل شارفت الرحلة على الانتهاء، وأنا لم أستكمل بعد فى مخيلتى جمع أجزاء صورة المغرب، تلك المرأة التى جاءتنى فى الحلم ذات مساء؟ كيف لى أن أحدث قلبى بأن يقنع بالرحيل والإياب، وامرأة البحر ذات العينين السماويتين لم تنته بعد من اطلاعى على ما فى صندوق تذكاراتها المرصع بالصدف والفضة من أسرار وحكايات؟ هل لابد من مسافة تفصل بينى وبين المدن والأمكنة حتى يمكننى كتابتها متوسلا بالذاكرة والتأمل؟.

ينصح الروائى المغربى «محمد شكرى» بألا ننساق مع نهر حياة المدينة التى نحب وبأن نعرف كيف نسبح فيه، وبأن نعيش يوماً ونستريح أياما، من أجل استيعاب تجربتنا، لأنه إذا ما انسقنا مع دوامة الحياة اليومية فى المدينة التى نحب، فسنصبح مدمنين على شىء ما من مباهجها.

لكن من أين لى أنا بتلك الأيام التى أستريح فيها، وأيامى فى المغرب محدودة وقليلة؟.

على رصيف محطة قطارات «مراكش» التى عدت إليها من جديد قادما من «الدار البيضاء»، أجدنى أتحدث إلى «عزيز الشاهدى»، القادم من مدينة «فاس» ليلحق بوحدته بالحرس الملكى بعد قضائه إجازة مع

أســرته. قلت له: أكاد أظن أنك مصرى أبا عــن جد. قال: أنت كذلك، فــى ملامح وجهك الكثير من والدى الذى يعمل فى الصناعات التقليدية فى «فاس».

ســيرا على الأقدام، دليلنــا مئذنة جامع الكتبيــة، حدثنى «عزيز الفاســى» بلغة عربية واضحة وســليمة عن «مصطفى العلوى» الصحفى الشــجاع الجرىء رئيس تحرير جريدة الأسبوع، وعن «فاس» المكتفية بذاتها، المســتغنية عن الآخرين، التى لا تمنح مفاتيح أســرارها إلا لمن يدلل على صدق عشــقه لها، والتى يتوارث ســكانها أســرار صناعاتها التقليديــة مثلمــا يتوارثون أصول الغناء والطرب الأندلســى بأشــعار «ابن زيدون» و «الشريف الرضى».

على بعد خطوات من ساحة الفنا وجامع الكتبية، تصافحنا، «عزيز» وأنا، بعد أن تبادلنا أرقــام الهواتف والعناوين، وغادرنى متوجها إلى عمله بالحرس الملكى الذى يوفر له ولأسرته بعض امتيازات، وتوجهت أنا إلى غرفتى بالفندق لكى أغير ملابســى وألحق بحفل عشــاء فى أحد الفنادق الكبرى فى «مراكش».

فــى الطريق إلى مدينة «الصويــرة» على البحر المحيط، والتى تبتعد بنحو ١٧٠ كيلو مترا عن «مراكش» فى الشــرق «وأغادير» فى الجنوب، أنظــر عبر زجاج الحافلة، أرقب الحقول التى تنتظر هطول المطر – فى أشهر ديسمبر ويناير وفبراير حتى ترتدى ثوبا أخضر جميلا. فلاحون مغاربة فى إجازة إجبارية يســتلقون فى تكاســل أمام أبواب الدكاكين

الفقيرة التى لا تفتقر إلى مسحة من جمال وتزيين. عند لافتة كتب عليها «وادى شيشاوة»، يسير حمار فى تباطؤ يحمل على ظهره فلاحاً ينظر فى السماء. قطيع أغنام يتجول هنا وهناك ، بالقرب من محل لبيع علف المواشى والدواجن، بحثا عن بقايا خضرة.

أقرأ فى صحيفة عن «زاكورا» المدينة الصحراوية الصغيرة التى تقع فى جنوب المغرب، وعن أبنائها الذين أصروا على عقد الملتقى الدولى للفيلم عبر الصحراء فى الهواء الطلق. تشير الصحيفة إلى أنه فى صحراء «زاكورا» المغربية صور المخرج «ديفيد لين» فيلمه الشهير «لورانس العرب»، وصور المخرج بيرتولوتشى فيلم «شاى فى الصحراء» المأخوذ عن رواية «السماء الواقية» للأمريكى عاشق المغرب «بول بولز». وفى صحراء «زاكورا» المغربية أيضا صورت مشاهد من فيلم «أوديب ملكا» للمخرج بازولينى وفيلم «مهمة كليوباترا» للمخرج آلان شابا».

أرسل البصر بعيدا إلى الجنوب، حيث الصحراء الكبرى، وقبائل الطوارق الأمازيغ، وآلة «الأمزاد» الموسيقية «تشبه آلة الكمان» تستطيع بها نساء الطوارق أن يوقعن الرجال فى الحب وأن يعاقبنهم أيضا. إذ يخشى الزوج من قبائل الطوارق أن يحرم من متعة سماع الألحان العذبة التى تعزفها له امرأته كل ليلة على «الأمزاد» إذا ما أساء التصرف إليها أو اغضبها بقول أو بفعل.

تقول كلمات أغنية قديمة تتغنى بها نساء الطوارق على نغمات آلة «الأمزاد»:

لا أريد أن يرى الدموع فى عينى
يجب ألا يعرف مدى حبى له
حتى وإن كنت أرتعش كغزال فى البرية.
وإن فلتت الأمزاد من بين يدى
سوف أنتظر وأنتظر كصياد يطارد فريسة
حتى يجدنى فى النهاية
لكن لم لا تأتى؟
أنا فى انتظارك
ستجد قلبا يحترق شوقا إليك
كما تحترق رمال الصحراء تحت أشعة الشمس

طيور النورس المهاجرة من الشمال البارد تستقبلنا على مشارف مدينة «الصويرة» الساحلية المطلة على البحر المحيط. أوقفت الحافلة محركها أسفل سور مرتفع لونه مزيج من الأحمر والبنى. يتبدى الميناء البحرى المزدحم بمراكب الصيد الملونة بالأحمر والأزرق، والصيادين، والشاطئ الرملى الأبيض ، وطيور البحر.

أقول لمرافقى «صالح شكور» من «بنى ملال»، التى جاء اسمها تحريفا لاسم قبائل بنى هلال التى سكنتها بعد قدومهم من الجزيرة العربية ومصر: يخيل إلىّ أن «الصويرة» قد خرجت توا من إحدى حكايات ألف ليلة وليلة بأسوارها العالية وأبوابها وأقواسها ومدافعها المشرعة فوهاتها فى اتجاه البحر المحيط، بحر الظلمات فى سالف العصر والأوان.

أصعد إلى أعلى نقطة فوق أسوار القصبة، القلعة الحربية الحصينة، وأغمض عينى، لأسافر عبر القرون التى شهدت قدوم البرتغاليين من البحر واحتلالهم «الصويرة». من حولى، تصطف على سطح القصبة المدافع المحمولة على ظهر عربات حربية. هنا جاء «أورسون ويلز» لتصوير المناظر الخارجية لفيلم «عطيل»، ليجد نفسه فى النهاية واحدا من عشاق الصويرة الكثيرين.

«الصويرة»، التى تستحم فى مياه البحر المحيط، عند مغيب الشمس فى كل مساء، ترتدى فى الصباح ثوبا من الأرجوان الطالع من المحار المنتشر فى عمق مياه الجزر الأرجوانية القريبة، ثم تشرع فى فتح بواباتها القديمة لتعرض لعشاقها من الرسامين والشعراء والموسيقيين بعضا من مفاتنها.

الشارع، المفعم بروائح التوابل، وسمك السردين المشوى المنسم بالليمون، والشاى المنعنع، والسوق المزدحم بمختلف ألوان وأشكال الصناعات التقليدية، يتفرع إلى أزقة ببيوت بيضاء ونوافذ زرقاء، وبين كل مجموعة بيوت يطل مرسم يعرض لوحات تصوير وأعمال خزف ونحت ومشغولات جلدية ونحاسية وفضية.

كعادتى دائما فى المدن التى أقع فى هواها، أجدنى أتعمد أن أضل طريقى فيها، لعلى فى مكان ما أحصل على مفاتيح أسرارها التى تضن بها المدينة على زوارها العابرين.. هكذا ضللت طريقى داخل شعاب

«الصويـرة» الفاتنة، التى لم تفتح لى صندوق تذكاراتها المرصع بالصدف والفضة إلا بعد أن أقسمت لها بأنى من أخلص عشاقها.

واجهة بيضاء لبيت تزين النقوش والزخارف بابه المصنوع من خشب العرعار المرصع بقطع من خشـب الليمون، وبأشكال من الصدف والعضم والأسـلاك المعدنية. مدخل البيت يزدان بأوان فخارية وخزفية ملونة بالأصفر والأخضر والبنى تشـتهر بها مدينة «آسفى» الساحلية القريبة التـى يفخر المغرب ويباهى بما تنتجه أيدى أبنائها من فخار وخزف. لم أسـتطع منع نفسى من دخول باب البيت الذى يعدنى بمباهج أكثر. على الأرضية قطعة سـجاد «زربية» بربرية بها رسوم هندسية، وعلى الحائط الأيمن قطعة سجاد بربرية أخرى، تحتوى على رسوم لكائنات حيوانيـة تنتمـى إلى «وادى شيشـاوة» القريـب، وإلى منطقتى «أولاد بوسبع» و «مرموشة».

لا أحـد فـى بهو الاسـتقبال بالبيـت البهيج. أقرأ السـلام ولا من مجيـب. يقـع بصرى على عمل نحتـى جميل من خشـب أرز الأطلس المصمت، وعلى لوحة للفنان «ماتيس» داخل إطار من نفس خشـب أرز الأطلس المأخوذ من غابة الهجيرات في منطقة «ميدالت»، والذى يتميز برائحة طيبة تسـتمر لسنوات. إلى اليسـار أريكة ومقاعد من الخشب المصبوغ محلى بزخارف هندسية مغربية أندلسية تتجلى في رسومات الزهور والطيور والأشـجار. وفى الوسط تماما منضدة عليها أعمال فنية من مشغولات النحاس والجلد والفضة.

من قلب البيت المتحف البهيج ، تتهادى فتاة مرتدية الزى المغربي، وجهها يشيع بهجة: أنا فاطمة، هذا بيت مكون من ثلاث شقق للإيجار العائلى، شقة واحدة بكل طابق. تفضل بالصعود على الدرج لتشاهد الشقق بنفسك. آسفة، لا يمكننى الصعود معك، فأنا بمفردى فى البيت.

فى داخل الشقة المتحف بالطابق الثالث وأمامى البحر المحيط، والسماء الزرقاء، والنوارس البيض، وجدتنى أصرخ بأعلى الصوت: الله.

شارفت الرحلة على الانتهاء، وأنا لم أستكمل بعد فى مخيلتى جمع أجزاء صورة المغرب، تلك المرأة الوردة التى جاءتنى فى الحلم ذات مساء.

كيف لى أن أحدث قلبى بأن يقنع بالرحيل والإياب ، وامرأة البحر ذات العينين السماويتين لم تنته بعد من إطلاعى على صندوق تذكاراتها المرصع بالفضة والصدف من أسرار وحكايات؟ هل لابد من مسافة تفصل بينى وبين المدن والأمكنة حتى يمكننى كتابتها متوسلا بالذاكرة والتأمل؟.

صدر للمؤلف

- الحب يسألكم المغفرة (شعر)
- أمريكا سرّى جدًا (أدب رخلة).
- وردة الشمال: أيام فى استوكهولم (أدب رحلة).
- هبة الجبل: رحلة إلى لبنان (أدب رحلة).
- شعب يوليو للروائية (نادين حوريمر) (ترجمة).
- «بيتر أرنت» أشهر مراسل عسكرى فى العالم (ترجمة).

تحت الطبع:

- رحلة إلى تونس البهية (أدب رحلة).
- غاورتى ملك مصر: حياة لاهية وموت مأسوى (ترجمة).

obeikandl.com

الفهرس

السفر إلى المغرب.. قصة عاطفية ٥
إلى بلد المحبوب.. الدار البيضاء ١٣
الركض وراء شمس مراكش ١٩
صورة تذكارية للجميلة النائمة ٢٥
الأندلس.. ابنة المغرب ٣٣
بحر من البشر في ساحة الفنا ٤١
الموت في مضيق جبل طارق ٤٩
«أغادير» مدينة البحر والجبل والذكريات ٥٧
العربية وطن المغرب ٦٣
«ابن بطوطة» يشد الرحال إلى الذات العربية ٧١
رأيت «طارق بن زياد» على شاطئ البحر المحيط ٧٩
في وداع امرأة البحر.. ذات العينين السماويتين ٨٧
المدينة الحلم ٩٥
كتابة السيرة الجماعية للمدينة الوطن ١٠١
«مليكة الفاسي» وقّعت على وثيقة الاستقلال ١٠٧
المرأة الوردة.. جاءتني في الحلم ذات مساء ١١٣

obeikandl.com

العدد القادم

بقايا كل شيء

أنيس منصور

obeikandl.com

اشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الاشتراك السنوى :

- داخل جمهورية مصر العربية ٦٠ جنيهًا.
- الدول العربية واتحاد البريد العربى ٨٠ دولارًا أمريكيًا.
- الدول الأجنبية ٩٠ دولارًا أمريكيًا.

تسدد قيمة الاشتراكات مقدمًا نقدًا أو بشيكات بإدارة الاشتراكات بمؤسسة الأهرام بشارع الجلاء - القاهرة.

أو بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة

obeikandl.com